بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة 17-6-2011م الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

((عبر من التاريخ -3-))

((الجزء الثالث))

الحمد لله.. الحمد لله ثم الحمد لله..

الحمد لله نحمده، ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبيٍّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله.

أرسله ربنا بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كلّه، ولو كَرِه الكافرون، ولو كَره المشركون، ولو كَره مَن كَرِه، اللهم صلّ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد.. فيا عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، فإن تقوى الله هي العدة لنا في الدنيا وفي الآخرة، وإن الله كتب العاقبة للمتقين فقال: ﴿ . . إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود:49] وقال تعالى: ﴿ . . وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه:132] فإنه من فارَق التقوى فارقه التوفيق في الدنيا والآخرة.

ثم أستفتح بالذي هو خير:

قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:109].

وقال ربنا: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف:111]

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [النور : 34]

قال المفسرون: (أنزلنا إليكم آيات واضحات في ذاتها، وموضحة لغيرها، وأنزلنا إليكم قصصاً عجيبة من أخبار السابقين الذين خلَوا من قبلكم لتهتدوا فيما يقع بينكم من أحداث).

عنوان خطبة اليوم:

(عِبر من التاريخ –3–).

لا زلتُ أتحدث إليكم –أيها الإخوة– عن إدارة الأزمات في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ إذ حصلت في زمن خلافته –رضي الله عنه– أزمتان شديدتان نزلتا بالأمة في السنة الثامنة عشرة للهجرة: أولاهما أزمة اقتصادية (عام الرمادة)، والثانية أزمة صحية (طاعون عمواس)؛ أصاب الناس في الجزيرة مجاعة شديدة، وجدب وقحط، واشتد الجوع، وعزَّت اللقمة، وزاد الجهد والضنك.

وأصاب الناس في الشام وما حولها طاعون عمواس، حصد عشرين ألفاً من البشر، منهم أشراف الناس.

ويلحظ الباحث نقاطاً مهمة في إدارة سيدنا عمر رضي الله عنه للأزمة، عرضت الخطبتان الماضيتان لنقطتين، وهما: (ساوى عمر نفسه وأهله وحاشيته بالناس، يصيبهم ما أصابهم، بل إنه رضي الله عنه– جعل من نفسه وأمرائه خلية أزمة يتعبون ليرتاح الناس).

والنقطة الثانية: (مدّ عمر رقعة الشورى، وجعلها تتسع ليفيد من كلّ ذي رأي في المساعدة على مواجهة الأزمة).

وتعرض خطبة اليوم لنقطة ثالثة أخيرة في إدارة عمر –رضي الله عنه– للأزمات، وهي:

(الاستغاثة بالله، والرجوع إليه)

أيها الإخوة:

ذكَرَت كتب التاريخ عن سليمان بن يسار قال: خطب عمر الناس في زمان الرمادة، فقال: (أيها الناس، اتقوا الله في أنفسكم وفيما غاب عن الناس من أمركم، فقد ابتُليت بكم وابتُليتم بي، فما أدري أَلِسَخطة عليَّ دونكم، أو عليكم دوني، أو قد عمّتني وعمّتكم، فهلمّوا فلندع الله أن يُصلح قلوبنا، وأن يرحمنا، وأن يرفع عنا المَحْلَ)، فرئي عمر يومئذ رافعاً يديه يدعو الله، ودعا الناس، وبكى وبكى الناس ملياً، ثم نزل.

وعن عبد الله بن ساعدة قال: رأيت عمر إذا صلى المغرب نادى: أيها الناس، استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، وسلوه من فضله، واستسقوا سقيا رحمة لا سقيا عذاب، فلم يزل كذلك حتى فرّج الله ذلك.

ولما أجمع عمر أن يستسقي ويخرج بالناس كتب إلى عماله أن يخرجوا يوم كذا وكذا، وأن يتضرعوا إلى ربهم ويطلبوا إليه أن يرفع هذا المَحْلَ عنهم، وخرج لذلك اليوم عليه بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى انتهى إلى المصلى، فخطب الناس، وتضرع وجعل الناس يلحّون، وقال في دعائه: (اللهم إني قد عجزت، وما عندك أوسع لهم)، ثم أخذ بيد العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال، اللهم هذا عم نبيك صلى الله عليه وسلم، نتوجه إليك به، وببقية آبائه، وكبير رجاله، فإنك قلت وقولك الحق: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [الكهف : 82]، فحفظتهما لصلاح أبيهما، فاحفظ اللهم نبيك في عمه، فقال العباس وعيناه تنضحان: اللهم إنه لا يَنزل بلاء إلا بذنب، ولا يُكشَف إلا بتوبة، وقد توجّه القوم إليك لمكاني من نبيك صلى الله عليه وسلم، وهذه أيدينا مبسوطة إليك بالذنوب، ونواصينا بالتوبة، فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، يا أرحم الراحمين، اللهم أنت الراعي لا تهمل الضالة، ولا تدع الكسير بدار مضيعة، فقد ضرع الصغير، وفرق الكبير، وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى. اللهم أغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا، فإنه لا ييأس من روحك إلا القوم الكافرون.

فسقى الله القوم وكشف الغمة وأزال الأزمة.

وكان عمر رضي الله عنه في أيام الأزمة –على ما يرويه ولده عبد الله –: لا يزال يصلي من الليل، حتى إذا كان آخر الليل يدعو من السحر، فيقول: (اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي، اللهم لا تهلكنا بالسنين، وارفع عنا البلاء، اللهم إياك نعبد وإياك نستعين، اللهم اغفر لنا وارحمنا وارض عنا).

أيها الإخوة:

في كتب السياسة الشرعية كتاب اسمه: "بدائع السلك في طبائع الملك"، مؤلفه القاضي محمد بن علي بن محمد الأزرق الأندلسي المالكي، من وفيات (896 هـ)، تحدث في كتابه هذا عن الشدائد والأزمات التي تنزل بالملوك، وفوائد في رفعها، فقال:

(من أنجح ما تُستمطَر به سحب الغمام خضوع السلطان لله تعالى وتذلله بين يديه. كما يحكى: أنه قحط الناس بقرطبة في آخر مدة الناصر من خلفاء بني أمية، فأمر

السلطان القاضي منذراً بالبروز إلى الاستسقاء، فتأهب أياماً، إنابة ورهبة. واجتمع الناس في المصلى، بارزين إلى الله تعالى في جمع عظيم....

وجاء رسول الخليفة ليحمل الشيخ القاضي للخروج، وكان الرسول من خواص الخليفة، فقال القاضي: ها أنا سائر، فيا ليت شعري ما الذي يصنع الخليفة؟

قال: ما رأيناه أخشع منه في يومنا هذا، أنه لمنفرد بنفسه، لابس أخشن الثياب، مفترش التراب، قد رمد به على رأسه ولحيته، قد علا بكاؤه واعترف بذنوبه، يقول: يا رب، هذه ناصيتي بيدك، أتراك تعذِّب الرعية بي، وأنت أحكم الحاكمين، لن يفوتك شيء مني، قال: فتهلل وجه الشيخ القاضي عندما سمع قوله، وقال: يا غلام، احمل الممطر ة معك، فقد أذن الله بالسقيا، إذا خضع جبار الأرض رضي جبار السماء.

فكان كما قال، ولم ينصرف الناس إلا بالسقيا) [بدائع السلك في طبائع الملك 1/164].

أيها الإخوة:

الاستغاثة بالله، والاستعانة بالله، والتوبة إلى الله والرجوع إلى الله، هي للناس عامة، وفي إدارة الأزمات لأصحاب القرار خاصة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:118].

ويقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:30-31]

ومهما بحثت الناس في إدارة الأزمات بعيداً عن الرجوع إلى الله تعالى والاستعانة به، إنّ أمرهم لعسير.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:56]

ألا تذكرون الثلاثة الذين خُلِّفوا عن تبوك، كيف نزلت بهم الشدة والأزمة وضاقت عليهم الأرض بما رحُبَت، وضاقت عليهم أنفسهم، تماماً كما تضيق الأزمة اليوم على

الناس، وتقلّ سبل الخلاص، فلما لجؤوا إلى الله، وتابوا إليه، ورجعوا إليه، وعلموا أنه لا ملجأ منه إلا إليه، فتابّ عليهم وكفاهم وآواهم.

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : 118]

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان ليلة ريح شديدة، كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح، وإذا حَدث في السماء حَدَثٌ من كسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى ينجلي) [الطبراني].

(وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزَبه أمرٌ صلى) [أبو داود].

وكان يقول: (مَن أحسن فيما بقي غُفر له ما مضى، ومَن أساء فيما بقي أخذ بما مضى وما بقي) [الطبراني].

والحمد لله رب العالمين